تاريخ صناعة النسيج فى الاسكندرية

فى عصر البطالمـــة

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

من مزايا مصر أن الباحث يستطيع أن يتابع فيها تطور الحضارة الانسانية فى أدوارها المختلفة ، ففيها ترك الانسان آثاره منذ دب على ظهر الارض حتى اليوم : فيها آثار ما قبل التاريخ ، وفيها آثار العصور القديمة، وفيها آثار العصور الوسطى ، وفيها آثار العصور الحديثة • والفضل فى ذلك راجع أولا الى النيل واهب الحياة والحضارة لمصر ، وثانيا الى التربة التى جمعت بين الخصوبة والجفاف ، وثالثا الى ذلك المناخ المعتدل الجميل الذى ساعد على بقاء ما خلفه الاولون من آثار قيمة تفصح عن مدى رقى المصرى وتقدمه •

ومن خير ما احتفظت به مصر فى جوفها تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات القديمة التى أظهرتها الحفائر الاثرية والتى تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال ألوانها على ما بلغته هذه البلاد من الدرجة السامية فى صناعة المنسوجات فى العصور القديمة والوسطى •

ومن الطبيعى قبل أن نفصل القول فى تاريخ صناعة النسيج فى مدينة الاسكندرية فى عصر البطالمة أن نشير فى ايجاز الى ما كانت عليه هذه الصناعة فى مصر قبل تأسيس هذه المدينة فى سنة ٣٣١ ق٠م ، فصناعة النسيج من أقدم الصناعات التى عرفها الانسان ، لان الملابس من الضروريات التى لا غنى له عنها • وقد كانت تصنع فى عصور ما قبل التاريخ فى الاكواخ التى سكنها أجدادنا ، وظلت فى العصور التاريخية ــ كما كانت ــ صناعة منزلية ، فالفقراء يغزلون وينسجون ما هم فى حاجة اليه من أقمشة ، والاغنياء لهم خدمهم الذين يقومون لهم بهذه الاعمال ، وبتدرج الانسان فى سلم الحضارة أصبحت هذه الصناعة مهنة مستقلة اتخذها كثير من الناس أداة لكسب معاشهم •

واذا بحثنا عن صور تمثل هذه الصناعة على جدران المقابر الفرعونية فى العصور التاريخية لم نجدها الا فى قبور الدولتين الوسطى والحديثة «١» . أما مقابر الدولة القديمة التى كشفت حتى اليوم فلا وجود لها فيها ، ولعل ذلك راجع الى أن صناعة الغزل والنسيج كانت تعتبر فى عصر الدولة القديمة عملا عاديا بسيطا ليس فى حاجة الى أن يثبت على جدران المقبرة أما فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة فقد ارتفع شأنها واتسع نطاقها وأصبح لها مركز ملحوظ ، وصار الملوك والامراء وكبار الموظفين يفاخرون بحيازتهم لمصانع النسيج فى قصورهم «٢» . وقد مكنتهم ثروتهم من أن يستخدموا أمهر الصناع والفنانين وأغلى المواد الخام «٣»

وكما كان للملوك مناسجهم الخاصة فى قصورهم كذلك كان للكهنة مناسجهم الخاصة فى المعابد حيث تنسج الكميات الوفيرة من الاقمشة اللازمة للطقوس الدينية وللكهنة على السواء «٤» .

ولقد عرفت مصر الفرعونية كيف تعطى العالم أدق أنواع المنسوجات والادلة المادية التى تشهد بذلك كثيرة قد يخطئها العد ؛ فمن العصور السابقة على عصر الاسرات وصلت الينا أقمشة تنطق بأن النساج المصرى قد تجاوز فى هذه الصناعة المرحلة البدائية بكثير «٥» . ومن عصر الاسرات وجدت أمثلة من الكتان الرقيق عليها كتابات وزخارف غاية فى الدقة والجمال ولايتسع المجال لكى نذكرها جميعا انما نكتفى بذكر أمثلة ثلاث :

---

1. Newberry, *Beni-Hassan*, pl. XXIX, *Al-Bersha* I, pl. XXVI; Davies *Five Theban Tombs*, pl. XXXVII.

2. Kees, *Aegypten* p. 72

(٣) لقد عاش هذا النظام على مر العصور تحت أسماء مختلفة ، ففى عصر البطالمة كان فى الاسكندرية مصنع خاص لنسج الصوف للملكة كليوباترا ، وفى عصر الرومان كان فى تلك المدينة مصنع للنسيج عرف باسم الجنسيم Gynaceum وفى العصر الاسلامى عرف باسم « دار الطراز » .

4. Lutz, *Textiles and Costumes among the people of the ancient Near East p. 59.*

5. Reifstahl, *Patterned Textiles in Pharaonic Egypt. p. 1*

الاولى وجـدت فى مقبرة الدير البحرى ترجع الى الاسرة الحـادية عشرة وقوام زخرفتها أشرطة من خطوط منكسرة مكونة من خمل بارز على سطح القماش ، والواقع أن اتقان هذه الطريقة الفنية للنسيج ليبعث على الدهشة ويكشف عن مهارة النساج المصرى فى ذلك العصر السحيق «[1]» . والمثال الثانى قطعة من الكتان تحمل اسم الملك امنحتب الثانى أحد ملوك الاسرة الثامنة عشر منسوجا داخل منطقة بيضاوية الشكل ، وتزدان بأشرطة ثمانية من زخرفة نباتية نشاهد فيها أزهار عرائس النيل (اللوتس) وبراعمها«[2]». والمثال الثالث يتكون من عدة قطع عثر عليها فى مقبرة توتعنخ آمون وهى تزدان بزخارف شتى «[3]» .

على أن الادلة التى تثبت مهارة النساج المصريين القدماء لاتقف عنـد حد هذه الامثلة الملموسة التى ذكرناها بل أننا لنشاهد على جدران بعض المعابد صورا تمثل ملابس مزخرفة بحروف هيروغليفية أو أشكال هندسية ، وأخرى شفافة تنم عما تحتها «[4]» ، كما نقرأ فى هيرودوت وصفا شيقا لرداء من كتان بعث به الملك أمازيس أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين الى حكومة أسبرطة على سبيل الهدية «[5]» .

ولقد اشتهرت مصر بزراعة الكتان فى العالم القديم ، وجدران آثارها غنية بالصور التى تجلو علينا زراعة هذا النبات وطريقة نسجه «[6]». ولسنا نعرف عن استعمال الصوف فى ذلك العصر شيئا ، بل أنه لاتوجد فى اللغـة

---

1. Riefstahl, *op. cit* p.p. 17 & 20.

2. Newberry and Carter, *The Tomb of Totmes IV, Cat, Gen. Ant. Egypt. Mus. Caire*, Nos. 46001-46529, p. 143 ff.

3. Carter-Mace, *The Tomb of Tutankhamun* 1 p. 167 ff., III p. 124. ff; Pfister, *Les Textiles du tombeaux de Toutankhamun*, Rev., des arts Asiat., I. XI, p. 207 ff.; Riefstahl, *op. cit* p. 24 ff.

4. Riefstahl, *op. cit* p. 39.

5. Herodotus III, 47 (Godley's translations in Loeb Library edition).

6. Erman-Ranke, *Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum*, p. 536; Selim Hassan, *Misr ol-qadima*, p.p. 85-86.

المصرية القديمة كلمة تعنى الصوف «١» . وأما عن زراعة القطن ونسيجه فى مصر فى ذلك الوقت فلم نهتد بعد الى وثيقة تنير لنا السبيل فى هذا الموضوع «٢» .

وأنواع المنسوجات الفرعونية كثيرة ، وقد استمدت اسماءها أما من اللون الذى كانت تصبغ به ، أو من عدد الخيوط التي كان يتكون منها كل من اللحمة والسدى «٣» . ومن أشهرها البيسوس Byssus الذى قال عنه هيرودوت «٤» أن المصريين القدماء استعملوه فى لف مومياتهم . ويقول Loret «٥» أن كلمة «بيسوس» مرادفة للكلمة الهيروغليفية نيسوت Nisut التى تعنى « ملكى » مما يدل على أن هذا النوع من النسيج كان من أحسن الانواع وأرقها .

وقد عرف الفراعنة الطرق المختلفة لزخرفة المنسوجات فرقموا عليها بالاصباغ رسوما مختلفة «٦» ، أو نسجوها من خيوط مختلفة الالوان «٧» ،

---

1. Lutz, *op. cit.* p. 24.

2. Griffith and Crowfoot, *On the Early Use of Cotton in the Nile Valley, J.E.A. XI, 1934,* p. 5 ff.

3. Lutz, *op. cit.* p. 55.

4. Herodotus, II. 86.

5. Loret, *L'Egypte au temps des Pharons,* p. 178.

(٦) لعل هذه الطريقة Painting هى اقدم طرق الزخرفة على المنسوجات

(٧) فى المنسوجات المزخرفة بهذه الطريقة woven patterned تكون خيوط اللحمة من لون وخيوط السدى من لون آخر وتقاطع هذه الخيوط مما يحدث الزخرفة .

أو طرزوا عليها أشكالا متباينة «١» أو نسجوا فى أجزاء منها زخارف شتى «٢» كما استعملوا أيضا طريقة الاضافة «٣» ، وعرفوا كيف يزينون أقمشتهم بالخمل «٤» .

* * *

وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق.م. وسرعان ما تقدمت ونهضت حتى أصبحت فى مدى عشرات من السنين أهم مركز للحضارة ، وارتقت الحياة فيها رقيا جعلها تسحر بجمالها الباب المعاصرين على حد قول برشيا «٥» . ووصلت فى عصر البطالمة هذا الى ذروة الحضارة .

وانعكست حياتها المترفة بأجلى صورة فى كتب الادباء الاقدمين ، ولا غرو فالادب مرآة صافية تنعكس فيها حياة العصر . ويكفينا هنا أن نشير الى ما يتعلق بالمنسوجات التى هى موضوع بحثنا ، فالستائر الارجوانية اللون التى كانت تزين جدران القصور ، والطنافس التى هى أجمل من النوم الهنىء كما يقول الشاعر ثيوكريتس «٦» والملابس التى تزدان بصور

---

(١) بعد الانتهاء من نسج القماش تطرز عليه الزخارف بالابرة Embroidery

(٢) هذه الطريقة Tapestry قد حذقها أجدادنا الفراعنة وبلغوا فيها شأوا عظيما وقد ورثها عنهم أحفادهم وحافظوا عليها طوال العصور ، وكانت المنسوجات التى تزين بهذه الطريقة تنسج بالطريقة العادية للنسج اى تقاطع خيوط اللحمة بخيوط السدى حتى اذا وصل النساج الى النقطة التى يريد عمل الزخرفة فيها أوقف عملية الحشو بخيوط اللحمة واخذ فى عمل الزخرفة بخيوط جديدة تختلف فى لونها عن خيوط اللحمة الاصلية ـ وقد تختلف عنها فى نوعها ـ وذلك بنسج هذه الخيوط الجديدة مع خيوط السدى الاصلية ، وبعد الفراغ من عمل الزخرفة تنظم خيوط السدى كما كانت من قبل ثم تستانف عملية النسيج التى كانت تزاول قبل الزخرفة .

(٣) تشبه هذه الطريقة (Appliqué) طريقة التطريز ولا تختلف عنها الا فى ان الزخرفة تعمل فيها بواسطة اشرطة من القماش بدلا من خيوط الحرير أو الصوف .

(٤) تتركب الاقمشة ذات الخمل looped من نسيج تحتانى يسمى الوقمة ونسيج فوقانى يسمى الخميلة وهذه الخميلة تتكون من خيوط متصلة غير مقطوعة .

5. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, p. 26.

6. Theocritus, *Idylls*, XV, p. 78 ff.

الملوك ، والاقمشة الرائعة التى تقص علينا برسومها الكثير من القصص الخرافى ، والاردية الرقيقة التى تشف عما تحتها ، والمنسوجات التى تزدان بخيوط الذهب «١» .

ويخلص لنا من هذه النصوص الادبية :

أولا ــ أن الترف فى المنسوجات كان ملحوظا فى هذا العصر وهو يتجلى فى الملابس والطنافس والخيام والستائر والنمارق .

ثانيا ــ أن الاسكندرية كانت تستورد الطنافس من ايران والشيلان من اليونان علاوة على ماكانت تنتجه الانوال المصرية .

ثالثا ــ أن هناك أنواع شتى من الاقمشة منها الطنافس ذات الخمل والاكلمة والاقمشة الشفافة والملابس التى يدخل فى نسجها الذهب .

رابعا ــ أن الزخارف التى كانت تزين منسوجات هذا العصر هى صور الملوك والمناظر المستمدة من القصص الدينى .

ترى هل كانت الاسكندرية مركزا لصناعة هذه الاقمشة التى أشار اليها الكتاب والمؤرخون أم كانت مركزا تتجمع فيه المنسوجات التى تصنع فى داخل البلاد بقصد التصدير أو الاستهلاك المحلى ؟.

فى الواقع لقد كانت الامرين معا : كانت مركزا لصناعة النسيج وكانت مركزا لتصدير المنسوجات ولدينا من الوثائق القديمة ما يثبت ذلك ويكفى أن نشير الى نسيج البوليميتا Polymita الذى اخترعه نساج الاسكندرية فى هذا العصر وكانت له شهرة واسعة فى العالم «٢» .

---

1. Athenaeus, *The Deipnosphists* IV, 147 f., V, 196 B,C,F,; 197 B., 198 C.

2. P. Petrie III No. 120. ترجع هذه البردية الى النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد .

والذى يؤسف له حقا أننا لانملك أية وثيقة تكشف لنا عن نظام صناعة المنسوجات فى الاسكندرية فى عصر البطالمة هذا ولكن هناك وثائق شتى تتحدث عن صناعة المنسوجات فى مصر عامة ، وليس هنـاك سبب معقول يحملنا على الاعتقاد بأنها لاتنطبق على الاسكندرية كذلك ، فالاسكندرية جزء من مصر يجرى عليها مايجرى على غيرها من بلاد القطر .

ولقد حافظ الكتان على المكانة السامية التى كان متمتعا بهـا فى مصر فى العصر الفرعونى فعنى البطالمة بزراعته وأشرفوا بدقة على صناعته ، ولعل أهميته بالنسبة للحكومة تتجلى من بردية نعرف منها مدى حاجة الحكومة الى زراعته فقد كانت تحدد سنويا المساحة التى كانت تخصص له ، وكانت تمد الزراع الذين تعوزهم البذور بها أو بثمنها لتداركها «١» . وكان على الزراع أن يبيعوا مقدارا معينا من كتانهم الخاص الى الحكومة بثمن تحدده لهم وهم بعد ذلك أحرار فى التصرف فيما بقى لديهم من كتانهم «٢» .

واذا كان الكتان قد احتفظ بمكانته القديمة فان الصوف قد ارتفعت أهميته الى درجة لم تكن له من قبل وهذا أمر طبيعى لانه المادة الاوليـة التى كان يتخذ البطالمة منها ملابسهم قبل أن يفدوا الى مصر ولذلك نجـد أن الحيوانات ذات الصوف كانت موضع عنـاية البطالمة «٣» ، ومن بلاد العرب والحبشـة استوردوا الاغنام بل واستحضروا معها الاعراب لكى يعنوا بها «٤» . واذا كان من الميسور أن تضبط الحـكومة زراعة الكتان

---

1. P. Tebt. No. 769.

ترجع هذه البردية الى سنة ٢٣٧ – ٢٣٦ أو ٢١٢ – ٢١١ ق . م .
The Tebtunis Papyri, (Egyptian Exploration Fund)

2. The Revenew Laws of Ptolemy Philadelphus, 107.2; Edgar, Zenon Papyri, No. 59470 (Cat. Gen. Ant. Egypt. Mus. Cairo.)

3. Rostovzeff, *A large state in Egypt in the 3rd. Cent. B.C.*, p. 107

4. P. Hibeh, 36 (The Hibeh Papyri, Egyptian Exploration Fund); Zenon Papyri No. 57433, Cat. Gen. Ant. Egypt, Mus. Cairo.

وتحدد المساحة اللازمة لزراعته فان من العسير عليها اتباع ذلك فيما يختص بالصوف «١» ، ولذا كان الصوف والمنسوجات الصوفية حرة التداول «٢» .

أما القنب الذى كان يستعمل فى عمل الحبال والشباك وغيرها فلاتعرف عنه الا القليل أما القطن فلم يرد له ذكر فى النصوص البردية ولكن لايبعد أنه كان مستعملا فى هذا العصر ولا شك أن استعماله كان أقل أهمية من الكتان والصوف والقنب «٣» .

وللحرير قصة شيقة تعود بنا الى الوراء عشرين قرنا قبل الميلاد عندما لاحظت احدى أميرات الصين عن غير قصد ديدانا صغيرة تعيش على أوراق نبات التوت ، وقد أغراها هذا المنظر على التدقيق فى ملاحظتها فعرفت كيف تربى هذا الدود وكيف تحصل على خيوط الحرير من شرانقه . وقد حفظ لها بنو قومها هذا الصنيع ، فرفعوها الى مقام الالهة «٤» ، وسرعان ما تعلم الصينيون صناعة الحرير وأتقنوها واحتفظوا بسرها لانفسهم واعتبروا اذاعةهذا السر أوتصدير بويضات ديدانالقز جريمة كبيرة عقابهاالموت «٥» . ولقد عرفت الاسكندرية الحرير الصينى فىالقرن الاول قبل الميلاد «٦» ، وقد كان احدى السلع التجارية الهامة فى عصر البطالمة «٧» ، ويقول تارن

---

(١) الدكتور ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة جـ ٢ ص ٥٤٤

2. P. Enteuxels No. 2, *Requête et plaintes adressées au Roi d'Egypte au IIIe. cièle avant J.C., Textes et documents. Le Cuire.*

وهنا ينبغى الاشارة الى ان Tarn فى كتابه Hellenistic Civilization p. 165. يقول أن كل الكتان وربما كل الصوف كان يباع للملك باسعار محددة

3. Blumer, *Die Gewerbliche Tatigkeit der Volke des Klassischen Altertums*, p. 10 as quoted by Toutain, *The Economic Life of the Ancient World*, London, 1930, p. 127.

4. Algoud (Henri), *La soie, art et histore*, Paris 1930, p. 1 ff.

(٥) سوف نرى ــ فيما بعد ــ أن هذا القانون قد خرق وان هذا الاكتشاف قد ذاع سره فى القرن الرابع بعد الميلاد .

6. Tarn, *Hellenistic Civilization*, p. 224.

7. Lutz, *op. cit* p. 36.

Tarn أن الملابس الحريرية التى كانت ترتديهـا الملكة كليوباترا نسجت ـ أغلب الظن ـ من الحرير الصينى «١» .

* * *

وقد كان للملكة سالفة الذكر مصنعا لنسج الصوف بالاسكندرية «٢» وليس ذلك بجديد على مصر فقد كان للملوك فى العصر الفرعونى مصانع خاصة للنسيج . ولا ينبغى أن ننسى أن هذا هو المصنع الحكومى الوحيد للنسيج الذى نعرفه فى عصر البطالمة ، وقد وجد فى الفترة السابقة مباشرة للفتح الرومانى كما يقول بيرسـون «٣» ، على أنه ليس هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بأن هـذا المصنع كان موجودا طوال عصر البطـالمة ، فالمصـانع الحكوميـة للنسيج أمر كان معروفا فى مصر قبل البطـالمة واستمر قائما على عهدهم .

وتدلنا النقوش الموجودة على حجر رشيد «٤» المشهور أن المعـابد فى العصر الذى تتحدث عنه كانت تضم بين جدرانها مصانع للنسيج كما كان الحال من قبل ، وأنها كانت تنتج النسيج المعروف باسم البيسوس "Byssus" الذى أشرنا اليه من قبل والذى كان أكثر ما يستعمل حينئذ فى لف مومياء العجول المقدسة ، وقد كان الكهنة فى بعض الاحيان يقايضون بهذا النسيج على البخور والعطور من بلاد العرب ، وقد ثبتت هـذه المقايضة بكتابة تاريخية ترجع الى عصر بطليموس الثانى «٥» .

---

1. Tarn, *op. cit* p. 225.

(٢) يقول اوراسيوس (IV,19,20,21) أن اكتافيوس عند ما فتح الاسكندرية اعدم افينوس احد اعضاء مجلس الشيوخ الرومانى الذى حط من كرامتـه وكرامة الرومان فى شخصه بقبوله من الملكة كليوباترا وظيفة مدير مصنع نسج الصوف الذى يتبعها .

3. Persson, *Staat und Manufaktur im Romischen Reiche*, p. 129.

4. Bevan, *A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty* p. 42.

(٥) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمه ص ٥٤٧ والمراجع التى يشير اليها .

وكان على المعابد أن تقدم من نسيج البيسوس ضريبة عينية للملك فان لم تقم بذلك فرضت عليها غرامة مقررة ، وبطليموس الخامس فى المرسوم المنقوش على حجر رشيد سالف الذكر يعفى المعابد من ثلثى تلك الضريبة ومن دفع الغرامة المقررة بسبب عدم تقديم الكميات المحددة من هذا القماش ومن نفقات فحص الاقمشة التى قدمت للملك من حيث جودتها وكميتها .

وهناك أمر ملكى صادر من بطليموس السابع «[1]» يعفى به المعابد من المبالغ المستحقة عليهم لعدم تقديم كمية المنسوجات المفروضة عليهم ،ويحرم على جباة الاموال الحكومية «[2]» بيع الانوال التى تستخدم فى نسج قماش البيسوس كما يحرم أيضا على أى شخص امتلاك هذه الانوال أو استخدامها فيما عدا المرخص لهم بنسج البيسوس فى المعابد لانتاج ما يحتاجه الملك والالهة الاخرى ، وليس لاحد أن يسخر هؤلاء النساج أو يشغلهم بأجور مخفضة «[3]» .

وعلى أساس الوثائق التى تشير الى ما تقدم نميل الى الاعتقاد بأن مناسج المعابد كانت حرة فى انتاج ماتشاء من قماش البيسوس طالما أنها كانت تعطى الملك الكمية المفروضة عليها ، والحكومة من ناحيتها كانت تحمى نساج هذا النوع من القماش ، من جباة الاموال الحكومية وممن تحدثه نفسه فى استغلالهم لصالحه وذلك معاونة منها لهؤلاء النساج على القيام بعمل ما هى فى حاجة اليه من هذه الاقمشة ، ولعل هذه الحرية التى تمتع بها نساج البيسوس كان مردها الى العامل الدينى لاحتياج الطقوس الدينية لهذا النوع ذلك لاننا نقرأ فى بردية «[4]» أن الحكومة كانت تفرض رقابتها على انتاج قماش البوليميتا الذى أشرنا اليه من قبل والذى كان ينسج كذلك فى المعابد .

---

1. P. Tebt. V. Lines 62-64
2. P. Tebt V. lines 245-247
3. P. Tebt V. lines 247-251
4. P. Petrie III, 120; Préaux, *L'économie royale des Lagides*, p. 103.

والى جانب المصنع الملكى للنسيج ومناسج المعابد كانت توجد مصانع أهليـة ، ومن بردية ترجع الى عصر بطليموس السـابع «[1]» نستطيع أن نستخلص أن الحكومة كانت تكلف أحد موظفيها بمراقبة هذه المصـانع الاهلية مراقبة شديدة وبالاشراف على ما تنتجه من المنسوجات الكتانية ، وليس من المستبعد وجود هذه الرقابة أيضا على المنسـوجات المصنوعة من الصـوف . وينبغى أن نشـير هنـا الى أن هـذه الوثيقة ليست صريحة فى الاشـارة الى وجود هـذه المصانع الاهليـة فى مدينـة الاسكندرية بالذات ولكننا على الرغم من عـدم وجود وثائق تشير صراحة الى قيـام صناعة النسيج الاهلية فى الاسكندرية فانه يصعب علينا أن نتصور مدينة عظيمة كالاسكندرية كان لها القـدح المعلى فى صناعة النسيج ليس بهـا مصانع أهلية .

على أن هذه الرقابة الحكوميـة تدفعنا الى التساؤل هل كان انتـاج المنسوجا ت وتداولها فى عصر البطالمة احتكارا حكوميا ؟ لقـد أجاب كثير من المؤرخين والكتاب على هذا السؤال بالايجاب «[2]» . ولكننا نرى أن نقف عنده قليلا لنرى ان كان هناك احتكار فعلا أم أنهـا مجرد رقابة من الحكومة لكى تطمئن الى استمرار الانتاج فى هذه الناحية ؟ . الواقع أنه لكى نجيب على هذا السؤال اجابة صحيحة ينبغى أن نحدد معنى الاحتكار أولا ثم نحاول بعد ذلك أن نرى ان كان هذا المعنى ينطبق على الحالة التى نحن بصددها أم لا . أما الاحتكار فمعناه لغويا «العقد الواحد» ، ويحتكر معناها أن يمتلك الانسان شيئا ما وأن يكون هو البائع الوحيد له . ولقد رأينا من قبـل أن الحـكومة لم تكن هى وحدها المالـكة للمواد الخـام

1. P. Tebt. 703.

2. Lumbroso, *Recherches sur l'économie politique de l'Egypte sous les Lagides*, Turin, 1870, p. 100; Bouché-Leclercq, *Histoire des Lagides*, Paris, 1903, Vol. III, p. 269 ff. ; Maspéro, *Les finances de l'Egypte sous les Lagides*, Paris, 1905, p. 62; Reil, *Beitrage zur Kenntnis des Gewerbes in hellenistischen Aegyten*, Leipzig, 1913,p. 107; Jouguet,*L'Impérialisme Macédonian de l'Orient* Paris, 1926, p. 368; Tarn, *op. cit.*, p. 165; Bevan, *op. cit.*, pp. 148 & 150; Toutain, *op. cit.*, p. 136.

اللازمة لصناعة النسيج ولم تكن هى وحدها المالكة لمصانع النسيج ، ولم تكن هى وحدها التى تبيع المنسوجات ، فالى جانب حقول الكتان التى كانت تملكها كانت توجد الحقول التابعة للمعابد والحقول التابعة للاهالى، والى جانب قطعان الاغنام التى كانت تملكها كانت توجد قطعان المعابد وقطعان الاهالى ، والى جانب مصنعها الملكى للنسيج كانت توجد مصانع المعابد ومصانع الاهالى ، ولم يكن الملك هو التاجر الوحيد فالمعابد كانت تستبدل نسيج البيسوس بالبخور والعطور من بلاد العرب ، وكان هناك تجار يتاجرون فى المنسوجات فى مصر «[1]» و فى الخارج «[2]» • لم يكن هناك اذن احتكار حكومي للمنسوجات ولكن هذا لايعنى أن هذه الصناعة كانت حرة طليقة من كل قيد لان الحكومة فى الواقع كانت تشرف عليها اشرافا دقيقا ولعل هذا الاشراف هو الذى دفع ببعض الكتاب الى استعمال كلمة « احتكار » بدلا من كلمة « رقابة » • لقد كانت الحكومة تحدد سنويا الاراضى التى ينبغى أن تزرع كتانا ، وكانت تعطى البذور لمن هم فى حاجة اليها ، وكانت تأمر النساج بأن يبيعوها كميات محدودة من الكتان، وكانت ترغمهم أن ينسجوا لها كميات معينة من الاقمشة كانت تدفع لهم أثمانها ، وامتد اشرافها الى مصانع المعابد التى كانت ملزمة بأن تقدم للملك كميات معينة من البيسوس • ولا شك فى أن الغرض من هذه الرقابة كان للاستفادة من تلك المهارة التى حذقها المصريون فى صناعة المنسوجات ، فلقد حاول البطالمة بنظامهم هذا أن يحافظوا على المستوى الذى بلغته مصر فى هذه الصناعة فى عصر الفراعنة ونجحوا بالفعل فى ذلك وكان من أثر هذا النجاح النهوض بهذه الصناعة الى درجة عظيمة يكفى للتدليل عليها اختراعهم قماش البوليميتا الذى أشرنا اليه والقماش المعروف باسم القماش السورى "Syrian Cloth" «[3]» •

1. P. Cairo-Zenon, Nos. 59148, 59319, 59326; Noshy *op. cit.*, p. 587.
2. R. Laws, cols. 93, 94; Préaux, *op. cit.* p. 111.
3. P. Hibeh 51; P. Enteuxeis I; Préaux *op. cit.* p. 106 ff.

The king bought these textiles at prices fixed by him and the weavers were obliged to furnish him with a certain quantity. The wool needed for making this cloth was furnished from the royal stores and the weavers were paid by the royal bank.

ولقد كان فى الاسكندرية فى عصر البطالمة اتحادات للعمال عرفنا منهـا « اتحاد عمال شحن البضائع » ، « واتحاد عمال طحن الذرة » «[1]» ويقول ماسبرو أن هـذه الاتحادات كانت منتشرة فى مصر «[2]» . ويقرر توتان أن هناك مايحمل على الاعتقاد بأن الميل الى تكوين الاتحادات المهنية كان عاما فى مملكة البطالمة التى ازدهرت فيها الصناعات الى حد كبير وجذبت اليها عددا كبيرا من الصنـاع «[3]» على أنه لم يصل الينا شيء عن اتحـاد عمال النسيج ونميل الى الاعتقاد فى وجود مثل هذا الاتحادفى ذلك العصر الذى سمت فيه الصناعة الى درجة عالية من الرقى . وقد كان النساج أحرارا فى مزاولة عملهم بشرط أن يدفعوا ضريبة المهنة المفروضة عليهم وأنينسجوا للحكومة القـدر المقرر عليهم ؛ وللتحقق من توفر هـذين الشرطين كانت الحكومة تحصى عدد النساج سنويا وقد وصلت الينا بردية تتضمن احصاء من هذا القبيل «[4]» أما حريتهم فى مزاولة عملهم فنعرفها من بردية تفهممنها أن الناس كانت تطلب الى النساجين أن يغزلوا وينسجوا لهم ملابسهم من أصواف أغنامهم «[5]» .

***

ولم يصل الينا شيء من منسوجات الاسكندرية فى هذا العصر الذى تتحدث عنه ، فالحفائر الاثرية التى قامت فى الاسكندرية لم تكشف عن شيء من منتجات الانوال ولكنهـا أمدتنا بصور للمنسوجات رأيناها فى مقابر البطالمة وهذه الصور تؤيد فىالحقيقة ما قاله قدماء الكتابوالمؤرخين عن منسوجات الاسكندرية ، ولم يعد الاستاذ ادريانى جانب الحق عندما قال : Rarement nous avons le plaisir de constater une correspondance si significative entre les monuments et la tradition écrite «[6]»

1. Bouché-Leclercq, *op. cit.* vol III p. 172.
2. Maspéro, *op. cit.* p. 105.
3. Toutain, *op. cit.* 135.
4. P. Cairo-Zenon, 59295
5. P. Enteuxeis No. 4
6. Adriani, *La Nécropole de Moustafa Pacha.* p. 105

على أنه قد وصلت الينا قطعة نسيج من الصوف ليس من المستبعد أن تكون من انتاج الاسكندرية فى هذا العصر ، وهى قطعة كبيرة من القماش يغلب على الظن أنها كانت جزءا من ستر كبير ، وقد عثر عليها فى الحفائر الاثرية التى قامت فى مدينة أنطونيو سنة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ ، وطولها ١٤٠ فى ٨٧ سنتيمترا . وهى الان فى متحف الاقمشة التاريخية بمدينة ليون بفرنسا . وهى تزدان بأسماك سابحة رسمت بطريقة غاية فى الابداع وبألوان متعددة فوق أرضية زرقاء مائلة الى الخضرة ويبدو واضحا ظل كل سمكة حافا بها . وقد نسبها كاتب الى احدى الجزر اليونانية «١» ، ونسبها آخر الى العصر الاسكندرى «٢» ، وقال ثالث «٣» ان بين زخارفها وبين طراز الفن الهلينستى صلة وثيقة تتجلى لنا اذا ماقارنا بينها وبين قطعة النسيج التى عثر عليها فى كرتش والتى تزدان بصور البط ، ونسبها رابع الى أواخر العصر الهلينستى «٤» . ونحن نرى أن هذه القطعة ترجع الى أواخر العصر الهلينستى على أساس زخارفها ولكن المشكلة هى فى أى مكان من العالم الهلينستى نسجت هذه القطعة ؟ . هل نسجت فى احدى الجزر اليونانية ؟ . أم نسجت فى انطونيو حيث عثرعليها ؟ . أم نسجت فى سوريا أو آسيا الصغرى اللذين كانا من أشهر مناسج الصوف فى ذلك العصر ؟ أم نسجت فى الاسكندرية عاصمة البطالمة ؟ . والواقع اننا لايمكننا أن نقطع بنسبة هذه القطعة الى واحد من تلك المراكز على أن ذلك لايمنعنا من أن نحاول البحث وراء أقرب هذه المراكز الى الحقيقة . فالدعوى التى تقوم على نسبة هذه القطعة الى احدى الجزر اليونانية تفتقر الى دليل ترتاح اليه . والدعوى التى تقوم على نسبتها الى مدينة أنطونيو بصعيد مصر

1. Catalogue des pièces principales exposées, Musée Historique des Tissus, Lyon, p. I. No. 2

2. Raymond Cox, *Les soieries d'Art*, pl. I. p. 47

3. Volbach, Arch. Ang. 1926, p. 239, fig 1. Beiblatt zum, J.D.A.I. 1/11.

4. Wace, *Egyptian Textiles (3rd.-8th century B.C.) Exposition d'Art CopteLe, Caire, 1944 ; The Veil of Despoina*, n. 3. A.J.A. vol. XXXVIII p. 107 ff.

لايمكن أن تكون مقبولة لان هذه القطعة لاشك فى أنها سابقة على ظهور المسيحية وهذه المدينة انما أسسها هدريان الامبراطور الرومانى فى سنة اثنين وعشرين ومائة بعد الميلاد كما أن الموقع الذى أسست عليه لم يكن معروفا قبل عصر البطالمة أى فى العصر الفرعونى بأنه مركز لصناعة الاقمشة والقطعة كما أشرنا من قبل هيلينية وليست فرعونية . أما نسبتها الى سوريا وآسيا الصغرى والاسكندرية فأمر يدعو الى التبصر والتفكير ذلك لان هذه البلاد مضافا اليها بلاد اليونان كانت مشهورة بنسج الصوف ، والعلاقات التجارية كانت رائجة بين بعضها البعض ، والمنسوجات من السلع التى يسهل نقلها من مكان الى مكان فالى أى قطر من هذه الاقطار يمكننا أن ننسب هذه القطعة اليه فى اطمئنان ؟ . الواقع أننا نجد أنفسنا أميل الى الشعور بأن مصر هى أرجح الامكنة لنسج هذه القطعة ذلك لانها كانت ذات شهرة واسعة فى المنسوجات فى العصور الفرعونية ، وقد بلغت درجة سامية من النضوج فى النسيج فى عصر البطالمة أيضا ، ثم أن دقة نسج القطعة موضوع البحث ، واتقان رسمها ينطقان بخبرة واسعة طويلة فى فن النسيج سواء فى الكتان أو الصوف ، وفى الحق أن جمال هذه القطعة الاخاذ ليذكرنا بصيحة الاعجاب التى صدرت من سيدتين زارتا قصر بطليموس الثانى وقد أخذتا بجمال الستائر المعلقة على الجدران حتى لقد صاحت احداهما لزميلتها قائلة « أنظرى أنه ليخيل الى أن الصور تتحرك ، انها ليست صورا ولكنها مخلوقات حية » «[1]» . كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأن الاسكندرية كانت المركز الذى نسجت فيه هذه القطعة .

محمد عبد العزيز مرزوق

1. Praxinoe and Gorgo, See Theocritus, *Idylls*, 15, V, 78 ff.